جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

الظواهر البلاغية من خلال الأساليب الإنشائية
في
"سورة يس"
دراسة تطبيقية

بقلم الدكتور :
عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر
مدرس البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

«الظواهر البلاغية من خلال الأساليب الإنشائية»

"في سورة يس"

دراسة تطبيقية

أورد السيوطى قول السكاكى : اعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما (١) .

فالبلاغة تعد من العناصر الأساسية فى دراسة وتفسير كتاب الله المعجز ببيانه ، وفصاحته ، الباهر بنظمه وبلاغته إذ لاسبيل إلى الوقوف على خصائص تراكيبه وأسرار بيانه ، وغوامض لطائفه دون التمرس بأساليب البلاغة والبصر بضروب الفصاحة ، وتذوق جماليات اللغة وطرائق استعمالاتها والإلمام بما فاضت به قرائح المرتادين لشعاب هذا الفن وما هطلت به أفكار المحلقين فى أفق هذا العلم (٢) .

والسور المكية - ويس واحدة منا - تدافع عن الدين بحرارة وتتحمس تحمساً شديداً لهذه الدعوة التى فيها صلاح حال الناس فى معاشهم ومعادهم ، وطبيعة هذا الموقف تتطلب أداء منفعلا متقداً شديد الوقع ، قوى التأثير ، وهذا يتفق مع الأساليب الإنشائية التى تثير انتباه السامع ، وتهيىء ذهنه ووجدانه لما يعرض عليه ، حتى إن الأساليب الإنشائية المدنية أخذت هذا الحكم أيضاً .

---

(١) معترك الأقران فى إعجاز القرآن جـ١ / ٤٠٣ تحقيق البجاوى .
(٢) الواحدى ومنهجه فى التفسير ٢٨ .

واللغة إنما تكون آدب من غيرها إذا اشتملت على الإنشاء أكثر من غيرها ، واللغة العربية مجالها واسع الباب فى هذا الباب (١) .

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الإنشاء الطلبى لاختصاصه بكثير من الدلالات البلاغية ، فهو تتوارد عليه المعانى التى تجعله من الأساليب الفنية ذات العطاء والتأثير .

بخلاف الإنشاء الذى ليس وراءه طلب فإن أكثر أنواعه فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء ، وأساليبه ليست مما تتوارد عليها المعانى ، فالقسم هو القسم والتعجب كذلك ، والمدح والذم وبقية الباب وهذا لا يعنى أنه ليس للتعجب والقسم مواقع يلتفت إليها فى البحث عن المزية ، لأن كل عناصر الكلام وصوره مجال لهذا البحث ، وخاصة الجملة القرآنية ، فهى بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها حتى صار من العسير بل من المستحيل أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة أو أن تستغنى فيها عن لفظ أو أن تزيد فيها شيئاً ، وصار قصارى أمرك إذا أردت معاضة جملة فى القرآن ، أن ترجع بعد طول المطاف إليها كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة ، فلم تجد فيها وهى بحر خضم ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن الكريم لهذا الأداء .

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى فتصوره بألفاظها لتلقيه فى النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها برز المعنى ظاهراً فيه المهم والأهم فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه وإلا اختل وانهار (٢)

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ص ١٩٣ .

(٢) من بلاغة القرآن ص ١٠٥ .

فإننا نجد للتعجب والقسم مواقع متقنة وفاعلة فى النفس فعل أقوى الأساليب وأدخلها فى بحث البلاغة ، ولكن هذا داخل فى الباب العام وهو دقة المطابقة وما وراءها من لطف الاعتبار وخفى الملاحظة فهناك صور من التعجب بالغة الفعل ، وكأنها حين تقع آخر المعنى تعيد خلقه وتجرى فيه الحياة ، والتعجب بطبيعته من المواقع الشعرية الخالصة التى يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعانى ثم إن صور القسم وما ينطوى عليه من إتقان فى توزيعها على مواقعها المختلفة وخاصة فى القرآن الكريم لها موقعها الجدير بها فى النظر البلاغى ، ترى هنا قسمًا بالنجم وما هوى وهناك بمواقع النجوم وفى غيره بالخنس والجوارى الكنس ، وهناك بالتين والزيتون .

وهكذا ترى المرسلات هنا والنازعات هناك ، والكشف عما وراء ذلك ليس من نافلة عمل البلاغيين ، ومهما يكن فالأمر فيه لا يعدو أن يكون كشفًا عن مدى المطابقة كما قلنا .

وهذا الباب يدخل فيه الاستفهام والأمر والنهى وغيرها حين يأتى على حقيقة معناه وتزيد صور الإنشاء الطلبى بهذه الأحوال التى ترى فيها هذه الأنواع تفيد غير معناها ، فالمبرر الذى جعل البلاغيين يشغلون بالاستفهام فى هذا الباب ويتركون القسم هو أن القسم كما قلنا لا يفيد إلا القسم أما الاستفهام فقد يفيد غير الاستفهام وقد أشار سعد الدين التفتازانى إشارة ضمنية إلى هذا بقوله يعلق على قول الخطيب القزوينى : (والإنشاء إن كان طلبًا استدعى مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب) قال : والغرض أن جميع أنواع الطلب يستدعى ذلك حتى إذا كان المطلوب حاصلا يمتنع إجراؤها على معناها الحقيقى ، ويتولد منهما بحسب القرائن ما يناسب المقام (١) .

---

(١) انظر المطول ص ٢٢٤ ، ودلالات التراكيب ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

وقد بين العلامة سعد الدين التفتازانى وجه حصر أقسام الإنشاء الطلبى ، وكيف انبثقت من طبيعة دلالاتها .

قال فى ذلك : لأنه إما أن يقتضى كونه مطلوبه ممكنًا أولا ... الثانى التمنى ، والأول إن كان المطلوب به حصول أمر فى ذهن الطالب فهو استفهام وإن كان المطلوب به حصول أمر فى الخارج ، فإن كان ذلك الأمر انتفاء فعل فهو النهى وإن كان ثبوته فإن كان بأحد حروف النداء فهو النداء ، وإلا فهو الأمر (١) .

وبعـــــد

فالقرآن المكى نزل والعرب فى أوج بلاغتهم وقمة حضارتهم اللغوية يمتلكون كنوزها ويتلاعبون بألفاظها وتراكيبها ، فالأسواق الأدبية تقام كل عام - عكاظ ، والمجنة ، وذو المجاز - يتبارى فيها الشعراء ويتلاعبون بالألفاظ وفى خضم هذه الغمرة التى وصلت الحد الأعلى من الفصاحة والبيان نزل القرآن بمكة يتحداهم فى فصاحتهم وبلاغتهم حتى إذا ما سمعه الوليد بن المغيرة قال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه .

كما كان سببًا فى إسلام كثير من الصحابة رضوان الله عليهم منهم عمر بن الخطاب لهذا السبب ولغيره قصدت إلى تبيان بعض الجزئيات التى كانت ضمن الإعجاز البيانى الذى تحدى فصاحة العرب .

ويس من السور المكية التى نزلت فى العهد المكى ، وعالجت موضوع العقيدة الإسلامية بشكل دقيق من إثبات الوحدانية وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والنشور .

---

(١) المطول ٢٢٤، ٢٢٥ .

وقد انتشرت الأساليب الإنشائية فيها مع ما تحمله من ظواهر بلاغية متعددة تثير انتباه السامع وتهيىء ذهنه ووجدانه لما يعرض عليه

ففى مجال الحديث عن كفارة مكة الذين تمادوا فى الغى والضلال ، وكذبوا سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم ، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه يأتى هذا فى الأسلوب الإنشائى : «وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون»(١)

قال: أبو عبيدة : فخرج لفظها على لفظ الاستفهام وإنما هو إخبار (٢) واستفهام التسوية هو الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها .

وعلى ذلك يكون المعنى : سواء عليهم الإنذار وعدمه ، مجردة للتسوية مضمحلا عنها معنى الاستفهام .

ومعنى الاستوا فيه استواء وهما فى علم المستفهم ، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ، ولكن لا يعنيه وكلاهما معلوم بعلم غير معين .

ويثير الزركشى فى هذه الآية اعتراضاً ويجيب عليه فيقول فإن قيل : الاستواء يعلم من لفظة «سواء» لا من الهمزة ، مع أنه لو علم منه لزم التكرار .

قيل : هذا الاستواء غير ذلك الاستواء المستفاد من لفظة «سواء» وحاصله : أنه كان الاستفهام عن مستويين فجرد عن الاستفها وبقى الحديث عن المستويين .

---

(١) يس ١٠ .

(٢) سماه بهذا الاسم أبو عبيدة وسماه غيره من العلماء استفهام التسوية . انظر مجاز القرآن جـ٢ ص ١٥٨ ، والبرهان فى علوم القرآن جـ٢/٣٣٦ والإتقان فى علوم القرآن جـ٣ /٢٣٩ .

ولا يكون ضرر فى إدخال «سواء» عليه لتغايرهما ، لأن المعنى أن المستويين فى العلم يستويات فى عدم الإيمان .

وهذا - أعنى حذف مقدر واستعماله فيما بقى - كثير فى كلام العرب كما فى النداء ، فإنه لتخصيص المنادى وطلب إقباله ، فيحذف قيد الطلب ويستعمل فى مطلق الاختصاص ، نحو : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، فإنه ينسلخ عن معنى الكلمة ، لأن معناه مخصوص من بين سائر العصائب (١) .

ويثير الفخر الرازى فى الآية اعتراضا ويجيب عليه فيقول : إن قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول : إنه تعالى قال : «سواء عليهم» وما قال سواء عليك ، فالإنذار بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الإنذار ، لأن أحدهما مخرج له عن العهدة ، وسبب فى زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا ، وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار ، وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار فى دار القرار (٢) .

ومن الظواهر البلاغية التى ساعدت على إظهار المعنى مع الاستفهام تزييل الآية بقوله : «لايؤمنون» فهو تأكيد لقوله : «سواء عليهم أنذرتهم لم تنذرهم» (٣) .

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٢ /٣٣٦ ، والكشاف جـ١/٣٧ ، والبلاغة القرآنية ٣٦٠ .

(٢) انظر التفسير الكبير جـ٢٦/٤٦،٤٧ .

(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٥ وخطوات التفسير البيانى ص ٢١٢ .

السر البلاغى لهذا الأسلوب : أشار ابن عطية إلى ذلك السر بقوله :

أأنذرتهم أم لم تنذرهم لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر ، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام ، لأن فيه التسوية التى هى فى الاستفهام ، ألا ترى أنك إذا قلت خبرًا : سواء على أقمت أم قعدت أم ذهبت وإذا قلت مستفهمًا : أخرج زيد أم قام ؟ فقد استوى الأمران عندك ، هنان فى الخبر ، وهنان فى الاستفهام ، وعدم علم أحدهما بعينه فلما عممتهما التسوية جرى على الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه فى الإبهام .

وفائدة الإنذار مع تساويه مع العدم : أنه قاطع لحجتهم ، وأنهم قد دعوا فلم يؤمنوا ، ولئلا يقولوا : ربنا لو أرسلت ..... وأن فيه تكثير الأجر بمعاناة من لا قبول له للإيمان ومقاساته وإن فى ذلك عموم إنذاره ، لأنه أرسل للخلق كافة (١) .

وفى مجال هذا الإنذار - إنذار أهل مكة وغيرهم بالقرآن - جاء هذا الأسلوب الإنشائى : «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجركريم» (٢)

وفى هذا التركيب القرآنى أمر المراد منه التعميم الذى يدل على شرف المأموريه وفخامته ، على حد قول الزمخشرى فى قوله تعالى : «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (٣) .

فإن قلت من المأمور بقوله تعالى : «وبشر» قلت يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون كل واحد ، كما قال عليه الصلاة

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط جـ١/٤٧-٤٨ .

(٢) يس ١١ .

(٣) البقرة ٢٥ .

والسلام : (بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة) ولم يأمر بذلك واحداً بعينه ، وإنما كل أحد مأمور به ، وهذا الوجه أحسن وأجزل ، لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به (١) .

والفاء فى هذا التركيب لترتيب البشارة ، أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية (٢) . ولقد طابق أسلوب الأمر مقتضى الحال حيث ختمت به الآية المبدوءة بقصر انتفاع الإنذار على من آمن بالقرآن وعمل بما فيه وخاف الله دون أن يراه ، فحقت له هذه البشارة .

ﷺ وفى مجال الحديث عن أهل القرية الذين كذبوا الرسل عليهم السلام يأتى هذا الأسلوب الإنشائى : «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » (٣) .

الأمر فى هه الآية للإبلاغ (٤) ، والواو المصدرة لهذا التركيب ، إما عطف على ما قبله عطف القصة على القصة ، وإما عطف على مقدر ، أى فانذرهم واضرب لهم ..... إلخ (٥) .

أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله ، وقيل هم رسل عيسى .

---

(١) انظر الكشاف جـ١/٨٧ .

(٢) انظر روح المعانى جـ٢٢/٢١٨ .

(٣) يس ١٢ .

(٤) أهل اللغة قالوا : التهديد التخويف ، والإنذار الإبلاغ فيهما متقابلان . انظر عروس الأفراح جـ٢/٣٢١ .

(٥) روح المعانى جـ ٢٢/٢٢٠ .

ولقد طابق أسلوب الأمر مقتضى الحال حيث تصدر آيات تعرض قضية الوحى والرسالة والبعث والحساب فى صورة قصصية تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما ، معروضة كالعيان ، بعد عرضها فى صورة تقريرية (١) .

وفى الحديث نفسه عن قصة أصحاب القرية الذين كذبوا الرسل تأتى هذه الآيات التى تتضمن أساليب إنشائية تنبه السامع إلى مدى ما لاقاه الرسل فى تبليغ دعوة الله إلى خلقه ، وتبين طبيعة الأطباع المعوجة فتشاءموا بمن دعاهم إلى دين غير ما يدينون به كأنهم قالوا : أعاذنا الله مما تدعوننا إليه (٢) .

قال الله تعالى : ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون ، ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه ألهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين ، إنى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (٣)﴾ .

فى قوله : أئن ذكرتم ..... همزتان الأولى همزة الاستفهام والثانية همزة إن الشرطية ، فهذا شرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه .

والمعنى : ألن ذكرناكم ووعظناكم إلى توحيد الله تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ، بل أنتم قوم مسرفون ، أى ليس الأمر كما

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ٥/٢٩٦٠ .

(٢) انظر حاشية الشيخ زاده جـ٣ /١٢٥ .

(٣) يس ١٩ : ٢٧ .

زعمتم بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى العصيان والإجرام ، وهو توبيخ لهم مع الزجر والتقريع (١) .

«وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم» ..... إلخ .

صدر هذا الداعية المؤمن قوله بهذا الأسلوب الندائى الذى يوقظالنفس ويلفت الذهن لأنه طلب ودعاء ، وقال يا قوم تأليفًا لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة ، ثم كرر القول تأكيدًا وبيانًا للسبب ، وكل نداء فى كتاب الله يعقبه فهم فى الدين حقه أن يدرك بصيغ بليغة (٢) .

وبلاغة هذا الأسلوب تكمن فى وقوع الأمر بعد النداء ، لأن النداء - كما ذكرت يوقظ النفس ويلفت الذهن لأنه طلب ودعاء ، فإذا ما جاء الأمر صادف نفسًا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة حيث نتلقاه بحس واع وذهن منتبه ، وهذا دليل على عناية الأمر بأمره ورغبته فى إعداد النفوس لتلقيه .(٣).

ومن النكات البلاغية التى تعاونت مع أسلوب النداء والأمر فى بلاغة التركيب الإطناب بتكرار الفعل اتبعوا ، وبين الجملتين كمال اتصال فالثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى ، وهما أوفى بتأدية المراد ، وهو حمل المخاطبين على اتباع الرسل .

لأن المعنى : إنكم لا تخسرون باتباعهم شيئًا من دنياكم ، بل تربحون صحة دينكم ، وبذلك تنالون خيرى الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر الكشاف جـ٣ / ٣١٨ ، وروح المعانى جـ٢٢٤/٣ .

(٢) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٣٢٤/٢ .

(٣) البلاغة القرآنية ٣٧٥ ، ودلالات التراكيب ص ٢٥٦ .

ومن بلاغة الإطناب فى هذا التركيب أيضًا الإيغال فى قوله تعالى : «وهم مهتدون» والمقصود به هنا المبالغة فى الترغيب والحث ، فالمعنى قد تم عند قوله : «من لا يسألكم أجرًا» ولكن الآية ختمت بزيادة فيها تصريح بهداية المرسلين وفى ذلك حافز على اتباعهم وترغيب فيه (١) .

ثم يقول الله تعالى على لسان الداعية : «ومالى لا أعبد .... إلخ» .

هذا أسلوب لطيف فى الإنكار تتألف به القلوب ، فتقبل النصح ، وتبتعد عن الخطأ ، فالمتكلم ينكر الأمر على نفسه فى الظاهر ، وإن كان مراده إنكاره على الآخرين ، يريد بذلك التلطف فى النصح وعدم مواجهة المخاطبين بالإنكار حتى لا ينسب القبح إليهم فيثير غضبهم ، فهو يختار لهم ما يختار لنفسه ، وفيه نوع من التوبيخ والتقريع على ترك عبادة خالقهم ، والمعنى : أى شىء يمنعنى من أن أعبد خالقى الذى أبدع خلقى ؟ ، وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازى كلا بعمله (٢) .

ومن الظواهر البلاغية التى ساعدت فى إبراز المعنى المراد مع أسلوب الاستفهام الالتفات . يقول الزركشى : الأصل وإليه أرجع ، فالتفت من التكلم إلى الخطاب ، وفائدته أنه أخرج الكلام فى معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه تلطفًا وإعلامًا أنه يريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه فى مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله (٣) .

وفى قوله تعالى : «أأتخذ من دونه ألهة ....إلخ» ، جاءت هذه الآية عقب الآية السابقة : «ومالى لا أعبد ..... الآية» ، وذلك ليتم التوحيد ، فإن التوحيد بين التعطيل والإشراك فقال : «ومالى لا أعبد الذى

---

(١) انظر مفتاح البلاغة ص ١٣ .

(٢) انظر روح المعانى جـ٢٢/٢٦ .

(٣) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٣/٣١٥ .

فطرنى ، إشارة إلى وجود الإله ، وقال : «أأتخذ من دونه» إشارة إلى نفى غيره فيتحقق معنى : «لا إله إلا الله» (١) .

والبناء التركيبى فى الآية استفهام إنكارى يفيد التوبيخ أى كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغنى عن عابدها شيئًا ؟ (٢)

ولما كانت هذه الآيات تعالج قضية التوحيد جاءت على هذه الصورة التى تثير الوجدان وتؤثر فى النفس ، لأنها لا تحتمل أن يقال لقائلها صدقت أو كذبت .

وفى قوله : «إنى آمنت بربكم فاسمعون ، آخر نصيحة لحبيب النجار فى حياته لقومه ، جاءت بليغة فى موضعها ، مصدرة بالتأكيد مذيلة بالأمر الذى يراد منه النصح والإرشاد .

قال المفسرون : لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم (٣) .

ومن بلاغة هذا التركيب أيضًا الإيجاز فى أسلوب الأمر «فاسمعون» أى اسمعوا إيمانى تشهدوا لى به (٤) .

ومن هذا التركيب إنى آمنت بربكم فاسمعون ، والذى يليه «قيل ادخل الجنة» شبه كمال اتصال حيث أخرج الكلام مخرج الاستئناف ، لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقائه ربه كأن قائلا قال: كيف كان لقاء

---

(١) انظر التفسير الكبير جـ٢٦/٥٧ .

(٢) انظر روح المعانى جـ٢٢/٢٢٧ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير جـ٣/١٦٠ .

(٤) المسائل البلاغية فى كتاب الصاحبى ص٦٩ .

ربه بعد ذلك التصلب فى نصرة دينه والتسخى لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ، ولم يقل قيل له لا نصاب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا (١) .

كما تضمن هذا التركيب قيل ادخل الجنة ..... إلخ من الأساليب الإنشائية والظواهر البلاغية ، ما ينبه السامع على أن الجزاء من جنس العمل ، ففى هذا التركيب الأمر الذى يراد منه الإكرام ، إذ المعنى : فلما مات قال الله له : ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار جزاء على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة . فأسلوب الأمر يوحى بمدى إكرام الله لهذا الداعية وحبه له .

كما جاء أسلوب التمنى مطابقًا لمقتضى الحال حيث أن الموقف موقف داعية مؤمن يجب عليه أن يتحمل ما لا يتحمله غيره ، وأن يكون محبًا للخير ولو كلفه حياته وقد حصل .

فجاءت مقالته متضمنة تمنيًا مسبوقًا بتنبيه لينبه الداعية أن يخلص فى دعوته وأنه على الحق المبين مهما أصابه فى سبيل نشر الحق . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته ونصحهم بعد مماته (٢) .

والعرب إذا أرادوا مزيدًا من التنبيه واللفت قدموا على أسلوب التمنى «ألا» أو «يا» فيقولون ألا ليت ، أو ياليتنى (٣) .

---

(١) انظر الكشاف جـ٣/٣١٩ ، والصاحبى ص ١٧٥ .
(٢) انظر القرطبى جـ٨/٢٩٦ .
(٣) انظر دلالات التراكيب ١٩٥ .

ومن الظواهر البلاغية إضافة لما سبق :

١- فى إسناد القول إلى غير مذكور إشارة إلى أن الدخول يكون دخولا بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤوس الأشهاد يهنئه كل أحد (١) .

٢- فن ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام ، فإن ذكر الجنة مهد لفاصلتها ، وفى ذلك تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤوف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى والتشهير فيه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، ولمن ترصدوا له وتربصوا له الدوائر ونصبوا له الغوائل والمهالك ، هذا من جهة ، ثم إن فى تمنيه أن يعلموا ليرجعوا إلى أنفسهم بعد أن ينجلى الرّين عن صدورهم وتنجاب الغواشى عن عيونهم ، فيبدو الصبح لذى عينين وتتبدد حنادس الشك والمين ، وفى ذلك انتصار له ، وفوز لدعوته ، وما بعد ذلك غبطة لمستزيد (٢) .

※ وفى ختام الحديث عن أهل القرية الذين كذبوا الرسل عليهم السلام يأتى قوله تعالى : «يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون» (٣) .

يقول الزمخشرى : هذا نداء للحسرة عليهم كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٦/٦١ .

(٢) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/١٩٠ .

(٣) يس ٣٠ ، ٣١ .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة فى معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ، ومحنوها به ، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه وهو نفس ما قاله البيضاوى .

ويوضح الشهاب هذا فيقول : نداء الحسرة مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء ، وقوله يتلهف على حالهم معناه أن التحسر وقع من هؤلاء ، والمراد شدة حسراتها حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين ، ومعنى أن التحسر من الله على سبيل الاستعارة هو أن يشبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضًا ، فيقول : يا حسرة على العباد ، فالنداء للحسرة التعجب منه ، والمقصود تعظيم جنايتهم (١) .

وفى الآية تعريض بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين . والضمير فى الآية اللاحقة «ألم يروا كم أهلكنا ..... الآية» لأهل مكة والاستفهام للتقرير (٢) .

وبناء على قاعدة الزركشى التى تقول : إذا دخلت الهمزة على لم أفادت معنيين أحدهما : التنبيه والتذكير ، يكون معنى الآية : ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم (٣) .

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال ، فلما مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية ، جاء التركيب على هذه الصورة التى توبخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقوهم .

---

(١) انظر الكشاف جـ٣/٣٢٠، وحاشية الشهاب على البيضاوى جـ٧/٢٣٨ .
(٢) انظر روح المعانى جـ٢٣/٤ .
(٣) انظر البرهان جـ٤/١٧٩ ، ومختصر تفسير ابن كثير جـ٣/١٦١ .

※ ولما انتقلت السورة للحديث عن دلال القدرة والوحدانية منتزعة من المشاهد الكونية المتنوعة جاء هذا الأسلوب الإنشاى : ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (١) ذيلت هذه الآية بهذا البناء التركيبى لأسلوب الاستفهام الإنكارى الذى يدل على استقباح عدم شكرهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : أيرون هذه النعم أو يتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (٢) .

فهذا استفهام إنكارى للتوبيخ والتقريع ، لأنه لا شىء أقبح من إنكار النعمة وغمط الصنيع (٣) ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال حيث يقول ابن كثير : (لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم «وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون» عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ، «وجعلنا فيها جنات من نخيل...الآية» وماذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم وكدهم ، ولا بحولهم وقوتهم ، ولهذا قال : «أفلا يشكرون» ؟ (٤) .

※ وفى ختام الحديث عن دلائل القدرة والوحدانية تأتى هذه الآيات:

«وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون (٥) .

---

(١) يس ٣٥ .

(٢) انظر روح المعانى جـ٩/٢٣ .

(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ١٩٧/٨ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير جـ١٦٢/٣ . (٥) يس ٤٥ : ٤٩ .

فى هذه التركيبات القرآنية أساليب إنشائية أولها أمر المراد منه النصح والإرشاد ، أرشد إليه السياق وقرائن الأحوال ، فبعد أن ذكر الله تعالى الناس بدلائل قدرته وآثار رحمته أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق وإعراضهم عن الهدى والإيمان ، مع كثرة الآيات الواضحات والشواهد الباهرات .

والمعنى : وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه واعتبروا بما حل بالأمم السابقة قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل واحذروا ما وراءكم (١) من عذاب الآخرة لكى ترحموا ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، ودليله الآية التى بعدها ، وما تأتيهم من آية ..... الآية ، فاكتفى بهذا عن ذلك (٢) .

ما أروع هذه التركيبات القرآنية المشتملة على هذا الأسلوب الإنشائى - الأمر - الذى يراد منه النصح والإرشاد مع صنف من الناس لا ينفع معهم النصح - ولكن القرآن يعلمنا أن الدين النصيحة - وتمادوا فى غيهم وإنكارهم وتهكمهم واستبعادهم ، لما وعدهم به الله ، فجاء الأسلوب الاستفهامى ينبه الأذهان إلى مدى حرص هؤلاء الكفار على الدنيا وحطامها : «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه .... الآية» وتعاون مع أسلوب الاستفهام فى إبراز المعنى المراد تذييل الآية بالقصر : «إن أنتم إلا فى ضلال مبين» ، فجملة القصر جاءت لتقرير مضمون الإنكار على جهة التأكيد (٣) . والطباق فى قوله : «قال الذين كفروا للذين آمنوا» فقد قيل : وبضدها تتميز الأشياء .

---

(١) ويحتمل مع النصح والإرشاد الإنذار .

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ٣١٣/٨ ، والبرهان فى علوم القرآن جـ١٨٨/٣ .

(٣) أساليب التأكيد من خلال القرآن الكريم ص ١٠٨ .

ثم يأتى الاستفهام الثانى ليؤكد مدى هذا الحرص على الدنيا : «ويقولون متى هذا الوعد ..... الآية» فهم منكرون لليوم الآخر ، ولذلك قالوا ما قالوه على سبيل الاستبعاد والاستبطاء والاستهزاء .

وأساليب الاستفهام فى القرآن تحمل أكثر من معنى يشير الزمخشرى فى تفسيره لقول الله تعالى : «أفبعذابنا يستعجلون» (١) أن الإنكار التوبيخى جاء فى القرآن متصلا بالتبكيت والتهكم والتعجب والتجهيل والاستهزاء (٢) .

وجاء الرد على هؤلاء الكفرة المشركين الحريصين على الدنيا المنكرين للأحرة المستبعدين لقيام الساعة ، بأسلوب القصر ، «ما ينظرون إلا صيحة واحدة ..... الآية» .

وفى معرض الحديث عن القيامة وأهوالها وما يكون فيها من شداد تأتى الآيات التى تبين ذلك متضمنة الأسلوب الإنشائى الذى يثير الوجدان وينبه الذهن : «قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون» (٣) .

لقد نودى الويل لأن المقام يقتضى ذلك حيث أهوال القيامة وشدادها ، قال النحاس فى معنى نداء الويل : هذا وقت حضور الويل (٤) .

والسؤال فى هذه الآية عن الفاعل أى يقولون : يا هلاكنا من الذى أخرجنا من قبورنا التى كنا فيها ؟ وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل ، لأنه

---

(١) الشعراء ٢٠٤ .

(٢) الكشاف جـ٣/١٣٠ ، والمباحث البلاغية فى ضوء قضية الإعجاز القرآنى ص ١٨٢ ، والبلاغة القرآنية ص ٣٦٤ .

(٣) يس ٥٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس جـ٣/١٥٨ .

الذى سألوا عنه بأن يقال : الرحمن أو الله بعثكم ، لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيرًا لكفرهم ، وتقريعًا لهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل . ولقد جاء هذا الأسلوب مطابقًا لمقتضى الحال حيث نبه الأذهان إلى هول ذلك اليوم .

يقول ابن كثير : وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون (١) .

ومن الظواهر البلاغية فى هذا الأسلوب مع ما سبق فى الآية ما يأتى :

أ- ما ذكره غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى : لا تسألوا عن الباعث ، فإن هذا البعث ليس كبعث النائم ، وأن ليس ما يهمكم الآن، وإنما الذى يهمكم أن تسألوا ، ما هذا البعث ذو الأهوال والأفزاع وفيه من تقريعهم ما فيه (٢) .

ب- الاستعارة التصريحية الأصلية فقد استعار الرقاد للموت والجامع بينهما عدم ظهور الفعل ، لأن كلا من النائم والميت لا يظهر فيه فعل ، والمراد الفعل الاختيارى المعتد به ، فلا يرد أن النائم يصدر منه فعل ، وإنما قلنا أنها أصلية لأن المرقد مصدر ميمى (٣) .

وأما إذا جعلناه اسم مكان فتكون استعارة تبعية ، فقد شبه الموت بالرقاد بجامع حفاء الأثر فى كل منهما، ثم استعير الرقاد للموت ،

---

(١) انظر مختصر ابن كثير جـ٣/١٦٦ .
(٢) انظر حاشية الشهاب الخفاجى جـ٧/٢٤٧ ، وروح المعانى جـ٢٣/٣٢ .
(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢١٣ .

ثم اشتق من الرقاد بمعنى الموت ، مرقد بمعنى مكان الموت وهو القبر ، والقرينة هى «بعثنا» أو ما فى الآية قبلها : «ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» (١) .

٣- الإيجاز بالحذف : «هذا ما وعد الرحمن» ، أى تقول لهم الملائكة هذا ما وعدكم به الرحمن (٢) .

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء بآيات مبنية على هذه الأساليب الإنشائية : «وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التى كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصـــرون» (٣).

بدأ الترهيب بهذا الأسلوب - أسلوب الأمر - الذى يهز المشاعر والوجدان ثم يجىء أسلوب النداء الذى يوقظ النفس ويلفت الذهن ، متوسطا بين الأمر والاستفهام على الوصل القرآنى ، ثم يعاد النداء مرة أخرى يعقبه النهى معللا بالتوكيد ، أساليب إنشائية يقتضيها المقام حيث ذكر حال الأشقياء .

---

(١) انظر البلاغة التطبيقية ص ١٣٦ .

(٢) صفوة التفاسير جـ٢/٥٨ .

(٣) يس ٥٩ : ٦٦ .

ولقد تعاون مع الأساليب الإنشائية فى إظهار المعنى المراد ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ما يأتى : -

١- إيجاز الحذف إذ التقدير : ويقال امتازوا (١) وحذف حرف النداء .

٢- الهمزة متصدرة - فى قوله تعالى : «ألم أعهد إليكم ....» - جملة منتظمة فى سلك المقول لهم - أى للأشقياء - جارية مجرى التقريع والتوبيخ والتبكيت والإلزام والتذكير (٢) .

فهذا الأسلوب نبه الأذهان إلى مدى البوار والحسران اللذان يلحقان بالإنسان يوم القيامة لمخالفته للمنهج القويم فى الدنيا .

٣- التوضيح بعد الإبهام فى قوله «أيها المجرمون» .

٤- النداء بـ : يابنى آدم فيه من التبكيت ما فيه ، وفى تقديم النهى على الأمر لما أن حق التحلية التقدم على التحلية ، وليتصل به قوله تعالى : هذا صراط مستقيم» بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى ، لأنه المعروف فى الصراط المستقيم (٣) .

٥- مجىء الجملة مستأنفة عقب الأمر : «هذا صراط مستقيم» لبيان المقتضى للعهد بعبادته تعالى أو للعهد يشقيه ، ثم مجىء الصراط منكراً للمبالغة والتعظيم ، أى : هذا صراط بليغ فى استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه ، وأصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف (٤) .

٦- الطباق بين «أن لا تعبدوا الشيطان ..... وأن اعبدونى فالأول سلب والآخر إيجاب فجاء الترغيب فى المأموربه عقب النهى عن تنقيضه فهو من البلاغة بمكان .

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/٣٩ .

(٢) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٤/١٧٩ .

(٣) انظر فى ظلال القرآن جـ٥/٢٩٧٢ ، وروح المعانى جـ٢٣/٤٠ .

(٤) انظر الكشاف جـ٣/٣٢٧ .

وفى قوله تعالى : «ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون» ، كلام مستأنف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ، ولما كان الأمر كذلك تضمن ظواهر بلاغية عدة منها :

أ- ابتدىء بالقسم والتأكيد والإيجاز بالحذف - فاللام جواب للقسم المحذوف - .

ب- تزييله بهذا الاستفهام الإنكارى الذى تضمن إيجازا بالحذف أيضا ، فإن المعطوف عليه محذوف يقتضيه المقام .

يقول الألوسى : أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا ، حتى ترتدعوا عما كانوا عليه، كى لا يخيق بكم العذاب الأليم (١) .

وفى قوله تعالى : «اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون» ، أمر يحمل بين طياته معنى الإهانة والتحقير للكافرين الذين انحرفوا عن الحق ، وحادوا عن النهج القويم .

والمعنى : ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم فى الدنيا ، مثل قوله تعالى : «ذق إنك أنت العزيز الكريم» (٢) .

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال ، حيث جاء فى سياق آيات توبخ وتبكت هؤلاء الكفار وهم على شفير جهنم .

قال الصاوى معلقا على الآية السابقة لهذه الآية : «هذه جهنم التى كنتم توعدون» هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم ، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع (٣) .

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/٤١ .

(٢) الدخان ٤٩ وانظر الإيضاح ص ١٤٤ ، والطراز جـ٣/٢٨٣ ، وعروس الأفراح جـ٢/٣١٧ ، وروح المعانى جـ٢٣/٤١ .

(٣) انظر حاشية الصاوى على الجلالين جـ٣/٣٢٩ .

وفى قوله تعالى : «ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون» ، استفهام إنكارى ختمت به هذه الآية التى تنص على أن هؤلاء الكفرة المجرمين وهو تهديد لقريش - فى قبضة القدرة فلو شاء لأعماهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم ، فكيف يبصرون حينئذ؟ أى فكيف يبصرون ذلك الطريق ، وجهة السلوك ، والمقصود إنكار أبصارهم .

وحاصله كما قال الألوسى : لو نشاء لأذهبنا أحداقهم وأبصارهم فلو أرادوا الاستباق ، وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه لايقدرون عليه ولا يبصرونه (١) .

ومن البناء التركيبى فى هذه الآية حذف الجار وإيصال الفعل والأصل : فاستبقوا إلى الصراط ، أو يضمن معنى ابتدروا ، أو يجعل الصراط مسبوقًا لا مسبوقًا إليه ، أو ينتصب على الظرف (٢) .

ثم ذكر سبحانه وتعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار فقال : «ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون» (٣) .

ذيلت هذه الآية بهذا البناء التركيبى لأسلوب الاستفهام التوبيخى الذى يدل على استقباح عدم تفكرهم بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها وهى الدار الآخرة (٤) .

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/٤٥ ، وحاشية الشهاب جـ٧/٢٥٠ ، والاستفهام هنا يدل على النفى أيضًا - انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٢٢ .

(٢) انظر الكشاف جـ٣/٣٢٢ .

(٣) يس ٦٨ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير جـ٣/٥٧٨ .

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال ، حيث نبه الأذهان إلى مطلق قدرته تعالى ، قال ابن جزى : والقصد من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم (١) .

ومن الظواهر البلاغية التى ساعدت على إبراز المعنى المراد ، مع أسلوب الاستفهام الإيجاز بالحذف وتقديره : «أيرون ذلك فلا يعقلون» .

❋ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى هؤلاء الكفار وكل العباد بنعمه وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جل وعلا من آثاره فقال : «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون» (٢) .

فى قوله تعالى : «أو لم يروا ..... » وجهـــان صحيحـــان :

أولهمـــا : أن أصل التركيب وألم يروا ، ولكن لما كان الاستفهام له الصدارة ، قدمت الهمزة على الواو .

الوجـــه الثـــانى : أن يكون الكلام على حاله ، والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ، والتقدير : « ألم يتفكروا ولم يروا» (٣) .

والهمزة التى صدرت بها هذه الآية للإنكار والتعجب ، والمعنى - والله أعلم بمراده : أو لم ينظروا نظر اعتبار ويتفكروا فيما خلقته وأبدعته أيدينا من غير واسطة ، وبلا شريك ولا معين ، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا (٤) .

---

(١) انظر التسهيل فى علوم التنزيل جـ٣/١٦٦ .

(٢) يس ٧١ : ٧٣ .

(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٢٧ .

(٤) انظر روح المعانى جـ٢٣/٥٠ .

ولقد ساعد على إبراز المعنى المراد مع أسلوب الاستفهام والإيجاز بالحذف ، الاستعارة فى قوله : «مما عملت أيدينا أنعاما» الأنعام تخلق ولا تعمل ، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرا بيديه ويصنعه بنفسه ، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية (١) .

وفى قوله تعالى : «أفلا يشكرون» الهمزة للاستفهام الإنكارى الذى يدل على التوبيخ والتقريع ، و ما قيل فى الآية رقم ٣٥ يقال فى هذه الآية . والغرض من الآيات تعديد النعم وإقامة الحجة عليهم .

وقد أكد الخطيب القزوينى هذا المعنى حين قال : (إن إرجاع المعانى إلى ما يناسبها من المقام هو الذى يجعل لها صلة بعلم المعـــانى) (٢) .

ومن الظواهر البلاغية التى ساعدت على إبراز المعنى مع أسلوب الإنشاء ذكر العام بعد الخاص : «ولهم فيها منافع ومشارب» بعد قوله : «فمنها ركوبهم» الآية ، وفائدته تفخيم النعمة وتعظيم المنه .

* ولما وبخت الآيات وعنفت المشركين فى عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام ، جاء ختامها بهذا الأسلوب الإنشائى : «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٣) . نهى المراد منه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر حاشية الشيخ زاده على البيضاوى جـ٣/١٤٠ والأصح أن يقال : بطريق الاستعارة التبعية لأنها فى الفعل .

(٢) انظر بغية الإيضاح جـ٢/٤٣ .

(٣) يس ٧٦ .

ومعناه : لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك ، واتهامهم بأنك شاعر أو ساحر ولذلك ذيلت الآية بتعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف .

والفاء المصدرة فى أول الآية هى فاء الفصيحة ، أى إذا كان هذا حالهم مع ربهم عز وجل فلا تحزن بسبب قولهم عليك هو شاعر (١) .

فالمراد من النهى فى الآية الكريمة ، نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر من الحزن بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده .

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال ، حيث الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله آلهة ، والذين لا يشكرون ولا يذكرون ، ليطمئن بالا من ناحيتهم ، فهم مكشوفون لعلم الله ، وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه ، فلا على الرسول منهم وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة ، والله من ورائهم محيط .

ولقد هان أمرهم بهذا ، وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله ، وهو يعلم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وأنهم فى قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون (٢) .

ما أروع هذا التركيب الذى حوى أسلوب النهى ، وجاءت الجملة التفسيرية بعده لبيان العلة والسبب فى أنه لا يحزنه قولهم (٣) .

﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (٤) .

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٢/٥٢ .

(٢) انظر فى ظلال القرآن جـ٥/٢٩٧٦ .

(٣) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٣/٣٧ .

(٤) هود ١ .

* وبعد أن تقطع السورة أشواطًا عديدة من تذكير العباد بنعم الله جلا وعلا عليهم ، ومن أجلها نعمة بعثة الهادى البشير السراج المنير ، ورحمة للإنسانية جمعاء ، يأتى الحديث عن القضية التى يشتد عليها التركيز فى هذه السورة ، وهى قضية «البعث والنشور» فى صورة حوار ، ردًا على ذلك الكافر الذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وهو يفته ويذروه فى الهواء ويقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ، يأتى الجواب مفحمًا مسكتًا ، معجزًا : «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ....» إلى قوله تعالى : «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون» (١).

ابتدئت الآيات باستئناف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم ما يوجب التصديق به ، كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله عز وجل ، بعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام .

ولقد ساعد فى إبراز المعنى المراد مع أسلوب الاستفهام الذى يراد منه الإنكار فى الآية الأولى الإيجاز وبالحذف .

يقول الألوسى : والواو للعطف على جملة مقدرة وهى مستتبعة للمعطوف كما مر فى قوله تعالى : «أو لم يروا ....» الآية أى ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة ، أو هى عين تلك الجملة أعيدت تأكيدًا للنكير السابق وتمهيدًا لإنكار ما هو أحق منه بالإنكار ، لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ، ولا ريب فى أن علم الإنسان

---

(١) يس ٧٧ : ٨٢ .

بأحوال نفسه أهم ، وإحاطته بها أسهل وأتم ، فالإنكار والتعجب من الإخلال بذلك ، كأنه قيل : ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ، ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضًا ، مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الأهمية (١) .

ومما ساعد على إبراز المعنى فى الآية الكريمة مع أسلوب الاستفهام ختامها بصيغة المبالغة «خصيم مبين» .

وبنيت الآية اللاحقة لهذه الآية على أسلوب إنكارى أيضًا يفيد الجحد والاستعباد ، فهذا المنكر الجاحد يستبعد أن يحى الله هذه العظام، بعد ما أصبحت بالية أشد البلى مفتتة متلاشية .

يقـول الصـاوى : أورد كلامًا عجيبًا فى الغرابة هو كالمثل حيث قاس قدرتنا على قدرة الخالق (٢) . فجاءت الآية التى تليها مصدرة بها الأمر - قل - الذى يهز المشاعر ويوقظ النفس ، قل يا محمد تخريسًا وتبكيتًا لهذا الكافر وأمثاله بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال ، وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها «يحييها الذى أنشأها أول مرة» (٣) .

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال حيث جاء جوابًا لسؤال هذا الكافر : «من يحيى العظام وهى رميم ؟» فجاء الجواب مشاكلا للسؤال .

ومن الظواهر البلاغية فى الآيتين السابقتين التى ساعدت على إبراز المعنى مع الأسلوب الإنشائى ما يأتى :

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/٥٣ .

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين جـ٣/٣٣١ .

(٣) روح المعانى جـ٢٣/٥٥ .

١- **حسن البيان** : وحقيقة إخراج المعنى فى أحسن الصور الموضحة له ، وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها وقد تأتى العبارة عنه من طريق الإيجاز ، وقد تأتى من طريق الإطناب بحسب ما تقتضيه الحال ، وقد أتى بيان الكتاب العزيز فى هذه الآية : «من يحيى العظام .....» من الطريقين فكانت جامعة مانعة فى الاحتجاج القاطع للخصم (١) .

٢- شبه كمال الاتصال كما ذكر سابقًا .

٣- **الإيجاز** : يقول الزركشى : وهذا أشد ما يكون من الحجاج ، كما ذكره تحت باب إلجام الخصم بالحجة (٢) .

يقول أبو هلال العسكرى : ومن وضوح الدلالة ، وقرع الحجة قوله سبحانه : «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه» (٣) .... الآيتين ، فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ، لأن الإعادة ليست بأصعب فى العقول من الابتداء ، ثم قال تعالى : «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون» (٤) فزادها شرحًا وقوة ، لأن من يخرج النار من أجزاء الماء ، وهما ضدان ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه ثم قال تعالى : «أو ليس الذى خلق السموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم» (٥) .

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ص ١٢٦ وإعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٣٧ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ٣/٢٢٨، ٤٦٨ .

(٣) يس ٧٨، ٧٩ .

(٤) يس ٨٠ .

(٥) يس ٨١ .

فقواها أيضًا وزاد فى شرحها وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد لأن إعادة الخلق ليست بأصعب فى العقول من خلق السموات والأرض ابتداء (١) .

ومن الظواهر البلاغية التى وضحت المعنى وأكدته فى الآية الأخيرة - أو ليس الذى ..... مجيئها مبنية على أسلوب استفهامى تقريرى (٢) مسوق من جهته تعالى لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم به ويلزمهم الحجة .

يقول الألوسى : الهمزة للإنكار والنفى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام : أى : أليس الذى أنشأها أول مرة وليس الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا ، وليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ، بقادر على أن يخلق مثلهم ، فى الصغر والحقارة بالنسبة إليهما ، على أن المراد بمثلهم هم وأمثالهم ، أو على أن المراد به هم أنفسهم بطريق الكناية ، كما فى مثلك يفعل كذا وقال بعضهم : مثلهم فى أصول الذات وصفاتها وهو المعاد (٣) .

بلى وهو الخلاق العليم أى بلا هو القادر على ذلك فهو الخلاق المبدع فى الخلق والتكوين العليم بكل شىء ، فبلى جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى من تقرير ما بعد النفى من القدرة على الخلق بتعيينه للجواب ، نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الالتزام به (٤) .

---

(١) انظر الصناعتين ص١٨،١٧ .

(٢) حقيقة استفهام التقرير أنه استفهام إنكار والإنكار نفى ، وقد دخل على المنفى ونفى المنفى إثبات . البرهان فى علوم القرآن جـ٣٣١/٢ ، والإتقان جـ٢٣٦/٣ .

(٣) روح المعانى جـ٥٦/٢٣ .

(٤) المصدر السابق .

ومن الظواهر البلاغية أيضًا فيها مع ما سبق ، صيغة المبالغة فى «الخلاق العليم» والاحتجاج النظرى (١) .

وقبل أن تنتهى الآيات التى تبين قضية البعث والنشور يأتى الأمر (٢) - كن - يصور حال الحدث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى ، وفى هذا من الدلالة على القدرة البالغة ، ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع .

فإذا تأملنا ما فى الآية من أمر يعقه استجابة سريعة ، ثم قارنا بينه وبين أن نقول : إنما أمره إذا أراد شيئًا يكون ، فسنجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل ، قد ولى ونهب فى هذا القول .

لقد طابق هذا التركيب مقتضى الحال حيث جاء بعد الآيات التى بينت أدلة البعث بعد الموت والحساب والجزاء ، فصور لهم الحدث ، وبين لهم كيفية وقوعه وانقياده لقدرة الله عز وجل وأنه لا يصعب عليه شىء ، لأن أمره بين الكاف والنون ، فمتى أراد تعالى شيئًا وجد بدون تعب ولا جهد ولا كلفة ولا عناء .

وتعاون مع أسلوب الأمر فى إبراز المعنى المراد ، ما اشتمل عليه التركيب من الاستعارة التمثيلية «أن يقول له كن فيكون» حيث شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها فى الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا

---

(١) الفوائد المشوق ص ١٣٦ .

(٢) الأمر هنا يدل على التكوين وبعض البلاغيين يسميه التسخير والتكوين أعم من التسخير . انظر الصاحبى ص ١٨٥ وعروس الأفراح جـ٢/٣٢١ ومعترك الأقران جـ١/٤٤٢ .

امتناع فإذا أراد شيئًا وجد من غير إبطاء ولا تأخير ، وهو من لطائف الاستعارة (١) .

ثم تختتم السورة بظاهرة بلاغية - وإليه ترجعون - تنتهى إلى باب فى البلاغة قال عنه عبد القاهر الجرجانى : «إن هذا الباب كثير الفوائد جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان (٢) .

وهذه الظاهرة من أسمى أحوال هذا الباب إذ تفيد زيادة فى المعنى مع تحسين فى اللفظ ، وذلك هو الغاية القصوى وإليه المرجع فى فنون البلاغة .

إن الفنون البلاغية فى القرآن الكريم تجل عن الحصر والعد ، ولا يحيط بها إلا الله سبحانه وتعالى بدليل ما يستخرجه الدارسون كل يوم من أسرار جديدة فى القرآن لم ينتبه لها السابقون وتلك كلمة الله التى أودعها فى كتابه ، فهو لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ، ليظل محل أنظار وقلوب الباحثين والدارسين حتى يرث الله الأرض وما عليها .

ولله الحمد أولا وأخيرا

بقلم :
الدكتور/ عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر
مدرس البلاغة والنقد فى الكلية

---

(١) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن جـ١٩٢/١ وصفوة التفاسير جـ٦٤/٣

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٣٧ .

مراجـــــع البحـــــث

١- الإتقان فى علوم القرآن - للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل - دار التراث .

٢- أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم - للدكتور أحمد مختار - مؤسسة علوم القرآن .

٣- إعراب القرآن للنحاس - تحقيق زهير غازى زاهر - عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية .

٤- إعراب القرآن الكريم وبيانه - محى الدين الدرويش - دار الإرشاد - حمص سورية بيروت .

٥- الإيضاح - للخطيب القزوينى - دار الجيل - بيروت .

٦- البرهان فى علوم القرآن - للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل - دار الفكر .

٧- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح - الشيخ عبد المتعال الصعيدى - المطبعة النموذجية .

٨- البلاغة التطبيقية - للدكتور أحمد إبراهيم موسى - مطبعة المعرفة .

٩- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى - للدكتور محمد أبو موسى - مكتبة وهبة .

١٠- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى - المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

١١- تفسير ابن كثير - مكتبة دار التراث - القاهرة .

١٢- تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى - دار الفكر - القاهرة .

١٣- تفسير القرطبى - دار الكتب المصرية .

١٤- التفسير الكبير للفخر الرازى - دار إحياء التراث - بيروت .

١٥- تلخيص البيان فى مجازات القرآن - للشريف الرضى - تحقيق الدكتور على مقلد - مكتبة الحياة بيروت .

١٦- حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى - المكتبة الإسلامية بتركيا .
١٧- حاشية الشيخ زادة على البيضاوى - دار صادر - بيروت .
١٨- حاشية الصاوى على الجلالين - دار المعرفة - بيروت .
١٩- خطوات التفسير البيانى للقرآن - للدكتور محمد رجب البيومى - مجمع البحوث الإسلامية .
٢٠- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى - تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة .
٢١- دلالات التراكيب - للدكتور محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة .
٢٢- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - للألوسى - دار الفكر - بيروت .
٢٣- الصاحبى - لابن فارس - مطبعة المؤيد .
٢٤- صفوة التفاسير - محمد على الصابونى - دار القرآن الكريم - بيروت .
٢٥- الصناعتين لأبى هلال العسكرى - تحقيق الدكتور قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت .
٢٦- الطراز للعلوى - المقتطف - ١٩٣٤ م .
٢٧- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص - مطبعة السعادة بمصر .
٢٨- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - لابن القيم - مكتبة المتنبى - القاهرة .
٢٩- فى ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب - دار الشروق .
٣٠- الكشاف للزمخشرى - دار المعرفة - بيروت .
٣١- المباحث البلاغية فى ضوء قضية الإعجاز القرآنى - للدكتور أحمد جمال العمرى - مكتبة الخانجى .

٣٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة - مطبعة الخانجى - القاهرة ١٩٥٤ م .
٣٣- مختصر تفسير ابن كثير - للصابونى - دار القرآن الكريم - بيروت .
٣٤- المسائل البلاغية فى كتاب الصاحبى لابن فارس - للدكتور فريد النكلاوى - مطبعة الأمانة .
٣٥- المطول - لسعد الدين التفتازانى - مطبعة أحمد كامل - ١٣٣٠ هـ .
٣٦- المعانى فى ضوء أساليب القرآن - للدكتور عبد الفتاح لاشين - دار المعارف .
٣٧- معترك الأقران فى إعجاز القرآن - للسيوطى - تحقيق على البجاوى - دار الفكر العربى .
٣٨- مفتاح البلاغة - الدكتور محمد خليفة وعبد الحكيم نعناع - مكتبة الجامعة الأزهرية .
٣٩- من بلاغة القرآن - للدكتور أحمد بدوى - مطبعة نهضة مصر .
٤٠- الواحدى ومنهجه فى التفسير - للدكتور جوده المهدى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

«تمـــت»